المنبوذون وخلاص التحول الديني في رأي أمبيدكار

قراءة تحليلية لواقعة ناكبور

إعداد: ڈاکٹر عبد الملک أبو بكر (المحاضر في قسم مقارنة الأديان، الجامعة الإسلامية العالمية بإسلام آباد)

Abstract

This study attempts to elaborate the emancipation theory that Ambedkar promoted to liberate the untouchable Dalit community from the clutches of Hindu caste discrimination after his long struggle to retrieve its rights.As all of his peaceful efforts were not fruitful and failed to yield the tangible outcomes,he and his community found the conversion to Buddhism as solution to re-build their future and lead a dignified life.He succeeded to establish "Navayana" a new form of Buddhism when he syncretized thoughts of Buddha and Karl Marx.

كلمات مفتاحية: المنبوذون، التحول الديني، الخلاص الدنيوي، الفلسفة الاجتماعية، التطبيق الأخلاقي

تقديم

من محتمات التاريخ أن لكل فعل بشري ردّه الطبيعي، وأن تطبيق الترتيب الطبقي البراهماني الهندوسي على الشعب الهندي همش أطيافا منه وأبعدها عن درجة المساواة بين الإخوة البشر ونزعها من حقوقها الانسانية. فشرعت الطبقات السامية تقذف المجتمع المهمش في هاوية بهذه الدنيا وتجعل أعضاءه مرتادي مستنقع في هذا العالم وتعاملهم معاملة قاسية صلبة أسوأ منها للبهائم. ومن أبرز ردود فعل المجتمع المنبوذ على هذا التصرف الفظ الغليظ المستمر الخروج من الديانة الهندوسية والتغيير الديني سواء أكان فرديا أو جماعيا؛ إذ باءت جميع السبل للتخفيف من إيذاء واضطهاد الطبقات العالية بالفشل، متمثلا في واقعتي التحول إلى البوذية في "ناكبور" وإلى الإسلام في "ميناكشي فورام". وكان القاسم المشترك بين الحدثين الجللين سعي المنبوذين إلى التحرر من مساوئ وأضرار الترتيب الطبقي.

يدور هذا الإسهام العلمي حول ثلاثة أقسام رئيسية، ويتحدث الأول منها عن نظام الطبقات الهندوسية وإبعاد المنبوذين عن الرتبة الطبقية وما يترتب على حرهم منها من اضطهادات ومصاعب تعذب المجتمع المنبوذ. ويناقش الجزء الثاني منها قضايا التحول الجماعي ل "بيماراو

رامجي أمبيدكار"(1891—1956م)، وأصحابه المنبوذين في"ناكبور" إلى الديانة البوذية. ويهتم القسم الأخير بتفصيل تصور الخلاص الذي تبناه "أمبيدكار"لإنقاذ قومه من أغلال وقيود النظام الطبقي.

الدراسات السابقة

لا تبدو المكتبة العربية ثرية في اقتناء قدر هائل من الدراسات السابقة على موضوع التحول الديني للمنبوذين وخلفياته وبواعثه وهم مدحورون من الرتبة الطبقية الهندوسية. وتخالفها أدبيات مقارنة الأديان الإنجليزية، ومكتبا تها غنية بعدد وفير من البحوث .

1-Ian Douglas Richards,Poles Apart:The Debates on Religious Conversion in Post Independence India,A Ph.D Thesis, Toronto,University of Toronto,2017.

2-Sangharakshita, Ambedkar and Buddhism,Cambridge,Windhorse Publications,1986.

3-Mumtaz Ali Khan,Mass Conversion of Meenakshipuram A Socialogical Inquary:Religious Conversion and Revival Movements in South Asia in Medieval and Modern times, Edited by G.A.Oddie,New Delhi,Manohar Publication,1991.

تحظى هذه المؤلفات الثلاث بأهمية كبرى في إسهاب الحديث عن خروج "أمبيدكار" من الهندوسية وبحثه الطويل عن خيارات عدة للتحول الديني ولجوءه الأخير إلى البوذية وذلك خلاص نهائي بالنسبة له؛ إذ ليست المكتبة العربية غنية في شأن المنبوذين وتغييرهم الدين وتكون هذه الدراسة إضافة جديدة للباحثين العرب في مقارنة الأديان.

منهج البحث

تتصدر قضية رئيسية شؤون جميع المنبوذين، هي مواجهة إساءة التمييز الطبقي الهندوسي والتحرر منها؛ إذ هي مسألة واحدة في هذا البحث ينتج عنها حل حتمي يرادف خلاص هذا القوم البائس. واعتبر جماعة "أمبيدكار" التحول إلى البوذية خير وسيلة لتحقيق غرضه؛ فتفيد هذه الدراسة الفهم الصحيح لظاهرة تغيير الدين وتعرضها على الباحثين في مقارنة الأديان حتى يطلعوا على حقيقة نوايا معتنقي الدين الجديد وخلفيات الانتقال إلى هذا المنعطف الذي يطرأ على حياتهم ويسمو بهم إلى مستقبل يتوقعون فيه تحقيق أماني كثيرة.

أهمية البحث

تكمن أهمية هذه الدراسة بالنسبة للمسلمين في وجهات نظر "أمبيدكار" لأحوال المسلمين وعلاقاتهم المتوترة مع الهندوس قبل مائة سنة؛ إذ تسببت في ابتعاده عن التحول إلى الإسلام مخافة تأثيرها السلبي على المنبوذين فضلا عن أن حبر آيته التي انتهت به وقومه إلى هجر الديانة الهندوسية دفعت

أهالي "ميناكشي فورام" المنبوذين في إقليم "تاميض نادو" جنوبي الهند على دخول الإسلام احتجاجا على مضايقات الطبقات الهندوسية العالية عام 1981م اقتفاء بأثره واستنساخا لتغيره إلى البوذية[1]. ويقع اختيار المنبوذين في أي دين ما للتحول إليه والبقاء فيه قائما على سلوكيات أتباعها وتعاملهم مع الآخرين، وتجدر الإشارة هنا إلى مواقف المجتمع المنبوذ الناقدة من المعاملات التمييزية الطبقية بين مسيحيي الهند كون معظمهم متحولين إلى المسيحية من القوم المنبوذين؛ ولكنهم يواجهون الفصل الطبقي من الأقلية التي اعتنقت المسيحية بعد أن كان أعضاؤها منتمين إلى الطبقات السامية الهندوسية[2]. وتوجه هذه الآراء السلبية المترتبة على الواقع المسيحي أو الهندوسي تحذيرا علنيا للمسلمين إذا تلوثت تصرفاتهم بعناصر التهميش. ولا يغيبن عن بالهم أن التاريخ يثبت استناد أكثر قرارات المنبوذين إلى الجانب العملي لمن يدين بالدين لا إلى محبالهم النظري[3].

نظام الطبقات البراهمانية

ليس بإمكان أي باحث في دراسة الطوائف الهندوسية فهمها المنشود إلا بعد المعرفة الدقيقة بنظام الطبقات؛ لأن لها جذورا عميقة منبثة في كافة أجزاء العقائد والشرائع الهندوسية. وأما فيما يتصل بقضية المنبوذين فآثار النظام الطبقي السلبي هائلة عليهم كابرا عن كابر .

يقول أبو الريحان البيروني (973-1050م): "وللهند في أيامنا من ذلك أوفر الحظوظ، حتى إن مخالفتنا إياهم وتسويتنا بين الكافة إلا بالتقوى أعظم الحوائل بينهم وبين الإسلام. وهم يسمون طبقاتهم "برن (Varna) " أي الألوان، ويسمونها من جهة النسب "جاتك (Jati) " أي المواليد، وهذه الطبقات في أول الأمر أربع: عليا (البراهمة) قد ذكر في كتبهم أن خلقتهم من رأس (براهم)، وأن هذا الاسم كناية عن القوة المسماة (طبيعة)() والرأس علاوة الحيوان، والبراهمة نقاوة الجنس، ولذلك صاروا عندهم خيرة الإنس، والطبقة التي تتلوهم (كشتر) خلقوا بزعمهم من منكب براهم ويديه، ورتبتهم عن رتبة البراهمة غير متباعدة جدا، ودونهم "بيش" خُلقوا من رِجلي براهم، وهاتان المرتبتان الأخيرتان متقاربتان، وعلى تمايزهم تجمع المدن والقرى، أربعتهم مختلطي المساكن والدور، ثم أصحاب المهن دون هؤلاء (الطبقات الثلاث الفاضلة) غير معدودين"[4]. وخلق شودرا من قدمي براهم[5].

[1] Mumtaz Ali Khan,Mass Conversion of Meenakshipuram A Socialogical Inquary:Religious Conversion and Revival Movements in South Asia in Medieval and Modern times, Edited by G.A.Oddie,New Delhi,Manohar Publication,1991.

[2] Kalam,Mohamed A.,Religious Conversion in Tamil Nadu:Can These be viewed as Protest Movements, 45-46, www.jstor.org/stable/41919616,23-11-2020.

[3] George Oommen,The Emerging Dalit :A Historical Appraisal, https://www.religion-online.org,19-12-2021.

[4] محمد بن أحمد البيروني: تحقيق ما للهند من مقولة مقبولة في العقل أو مرذولة ،(مطبعة مجلس دائرة المعارف العثمانية بحيدر آباد، الهند،1958م)،76-77.

[5] -Margret and James Stutley,A Dictionary of Hinduism,Its Mythology,Folklore and Development 1500 BC 1500AD,London,Routledge &Kegan paul,1977),323.

وأما "بيش"، فإليه الفلاحة والعمارة ورعي السوائم وإزاحة علل البراهمة، وأما شودر (عضو الطبقة الرابعة) فهو للبرهمن كعبد يتصرف في اشتغاله وبخدمه، وكل عمل يخص البرهمن من التسايح وقراءة وقرابين النار فهو محظور عليه[6].

المنبوذون

يطلق على هذه الفرقة من البشر بأسماء مختلفة، أولها Outcaste المدحورون من الطبقات أو من سقطت عنه الرتبة الطبقية، وثانيها Untouchable من يحرم لمسه والتعامل العادي معه نتيجة النجاسة النابعة عن الولادة في الجماعة المفصولة عن الدرجة الطبقية، وثالثها Scheduled Caste المجتمع المجدول دستوريا في الهند وله حقوق في تخصيص المقاعد في المدارس الحكومية والوظائف في مكاتب ودواوين الحكومة، ضمنها الدستور بعد القضاء على المنبوذية الصادرة عن الدنس الناجم عن الولادة بيد أن البند الدستوري لم يبدل واقعا دينيا هندوسيا يختم القوم المنبوذ بأنه وسخ، ورابعها Asprasya قوم يرث انتماءه إلى المنزلة المنبوذية جيلا عن جيل، ويتلو درجة "شودرا" الطبقة السافلة الرابعة، ولا يسمح للطائفة المنبوذة بالتمتع باستخدام التسهيلات والمرافق المشتركة مثل البئر العام في القرية ويلزمها العيش خارجة القرية أو المدينة بدنس أعضائها الفطري، وخامسها Dalit مجتمع مضطهد وقد سمى المنبوذون أنفسهم بهذا اللقب نظرا لأوضاعهم المنكوبة والمأساوية، وسادسها Pancama الطبقة الخامسة ولم يشتهروا بها بسبب انحطاطهم عن المنزلة الطبقية، نظرا لمنع احتمال صدور انطباع خاطئ يدرجهم على قائمة الطبقات المعترف بها ولعدم استعداد الطبقات الراقية لاستقبالهم كطبقة خامسة، وسابعها Harijan أصحاب الإله ودعا "ماهاتما غاندي" (1869-1948م) المنبوذين بهذا اللقب رفعا لدرجتهم البشرية وتكريما لهم بعد أن تعاطف معهم وغمه معاناتهم[7].

يدخل الشخص هذا التصنيف الداني الأخس من الأنعام بمخالفة قوانين الطبقات: إما بالتزاوج بين الطبقات خلاف النظم الطبقية، وإما بالاشتغال بالوظائف والحرف السافلة التي لا تسمح بمزاولتها ضوابط الطبقات، وإما بالقيام بأي تصرف يستحق نيل العقوبة وينتهي بمرتكبه إلى الإخراج من الرتبة الطبقية[8] مثل قتل البراهمة رجال الدين البراهماني[9] وتناولهم الطعام أياما في منازل "شودرا" الطبقة الرذيلة[10].

إن المنبوذين ليسوا معدودين في شيء، وإنما يشتغلون برذالات الأعمال؛ من تنظيف القرى وخدمتها، وكلهم جنس واحد يميَّزون بالعمل كولد الزنا، وقد ذكر أنهم يرجعون إلى أب "شودر" وأم "برهمن" خرجوا منهما بالسفاح فهم منفيون منحطون[11]. وليس لهؤلاء مقام داخل

[6] محمد بن أحمد البيروني: تحقيق ما للهند من مقولة مقبولة في العقل أو مرذولة، 457.
[7] Robert Deliege, The Myths of Origin of the Indian Untouchables,535,www.jstor.org/stable/2804238,11-02-2023.
[8] Klaus.K. Klostermeir, A Survey of Hinduism,(New Delhi,Munshi Ram Manohar Lal Publisher Pvt.Ltd,1993),326.
[9] Gavin Flood, An Introduction to Hinduism,(Cambridge,The University Press,1999), 157.
[10] محمد بن أحمد البيروني: تحقيق ما للهند من مقولة مقبولة في العقل أو مرذولة، 475.
[11] Ibid,77.

الطبقات الأعلى يؤدي بهم إلى صفوفها، وقد لزمهم أن يعيشوا خارج القرى[12]، وأن يعملوا أرذل الأعمال وأكثرها تلوثا؛ كدباغة الجلود وتنظيف القرى بإخراج العظائم والروث منها[13].

معاملات مع المنبوذين

إن البراهمة رجال الدين الهندوسي والمنوذين ضدان لن يلتقيان، ويعني الأول الطهارة والصفو في حين يدل الشاني النجاسة والكدر[14]. وأما إذا عوقب الشخص بطرده من الطبقات فهو منبوذ ذو دنس دائم شعائري يستحيل إزالته، ولا يسمح بدخول المعابد والأضرحة التي يشرف البراهمة على إدارتها ورعايتها. ولا يتواصل معه أي عضو من الطبقات الشريفة. ولا يحافظ أحد من أعضائها على علاقات التزاوج معه ولا يشرب منه الماء ولا يدعوه إلى أي مأدبة. وحال كون جريمته فادحة مثل قتل البقرة تقاطع المجرم القرية برمتها وتبعده عنها وتدرجه على قائمة المنبوذين. ولا يحضر رجال الدين في بيته لإقامة الشعائر الدينية وتشريف أي حفلة مثل الزواج ولا يأتي حلاق لحلق لحيته وشاربه ولا يأخذ منه أي غسال الملابس القذرة لتنظيفها وكيّها[15].

لا يسمح للمنبوذين بدخول المعابد، خاصة إذا كان أمناؤها براهمة؛ لأن دنس هذا الصنف الديني يغضب الآلهة، ولو تم الآن صدور الأمر المانع من ذلك من قبل الحكومة الهندية، فلن يكون محل طاعة[16].

ولا يكتمل أي كتاب حول الهندوسية إلا بحديث ضروري عن المنبوذين والبشاعات التي يجابهونها على أيدي الطبقات السامية، والرد العنفي منها على أخطائهم دون تدخل قانوني. ومن أمثلتها قتل ثلاثة من المنبوذين بإطلاق الرصاص من قبل الطبقات السيدة لخرق مستفز في نظرها هو إطالة شاربهم نحو السماء لا إلى الأرض كما قتل منبوذ آخر وهو ماشي في الشارع وقد لبس النعال وورد ذكر هذين الحدثين في تقرير لجنة شؤون المنبوذين للحكومة الهندية[17].

الخروج من الهندوسية: واقعة ناكبور

[12] The Laws of Manu : 10:51.
[13] Gavin Flood, An Introduction to Hinduism,61.
[14] Ibid.
[15] Shridhar V.Ketkar,The History of caste in India,(Itacha N.Y,Taylors and Carpenters,1909), 25-26.
[16] Gavin Flood,An Introduction of Hindusim ,219-220.
[17] Klaus.K. Klostermeir, A Survey of Hinduism,485.

ليس من طبيعة الحل الذي جرى وراءه "أمبيدكار" الذي يعتبر من علماء الهند الكبار تحقيقا لمصلحة قومه العليا أن ينبثق من عقائد دينية هندوسية؛ بل انتظر طويلا يستغرق واحدا وعشرين عاما أن يصدر عن أسس سياسية دستورية عالمة. وأدى فشلها في إيجاد حل ناجع ينهي معاناة وألم المنبوذين إلى حالات اضطرار دفعت هذا الزعيم إلى إعلان نأي نفسه ومجتمعه عن الهندوسية[18].

خلفية تعليمية

ولد "أمبيدكار" في مدينة "موهو" بإقليم "ماديا فيرادیش" عام 1891م وتوفي عام 1956م. وكان والده منبوذا يعمل في الجيش البريطاني. وارتقى بـ "أمبيدكار" حسن حظه إلى مكانة علمية عليا وقد حصل على أربع شهادات دكتوراه في أربع مجالات مختلفة: السياسة من جامعة "كولومبيا" بأمريكا والاقتصاد من المدرسة الاقتصادية بلندن[19] والدكتوراه الفخرية في القانون من جامعة "كولومبيا" بأمريكا بعد أن حرر الدستور الهندي الأول بعد الاستقلال اعترافا بمهاراته القانونية والدكتوراه الفخرية في الآدب من الجامعة العثمانية الهندية بحيدرآباد اعترافا بإنجازاته مما شحذ همته لمجابهة تحديات المستقبل[20]. وكان موهوبا بمعرفة تسع لغات هي: المراثية (لغته الأم) والهندية والسنسكريتية والفايلة والفارسية والإنجليزية والفرنسية والألمانية[21]. ومكنته هذه الخلفية العلمية من القيام بكفاح طويل من جوانب عدة: كفاح قانوني وكفاح سياسي وكفاح حقوقي غير أن تعمقه الديني ومعرفته الواسعة وتأنيه الدائم لخصائصه الشخصية انتهت به إلى قطع العلاقة مع الهندوسية بعد أن كانت كافة سبل الكفاح السلمية مسدودة.

سابقة تغيير الدين

ليست واقعة هجر الهندوسية واعتناق البوذية جديدة بالنسبة للمنبوذين. وأما تغيير الدين فهو ظاهرة تاريخية لا تزال تؤثر حيا تهم حتى الآن ويحتمون بحماه ويشهد التاريخ أن أكثر حالات احتضان الإسلام في الهند لم تقع إلا من قبلهم[22]، ويمثل المسيحيون المنبوذون نسبة 70٪[23] من مجموع 25 مليون مسيحيا هنديا وقد تزايد عدد سكان الهند على 2،1 بليون نسمة[24].

[18] Mecarena Alamo Santos,The Path to A New Awakening:B.R.Ambedkar's transformation of Buddhist Philosophy,MA Thesis,(Ottawa,University of Ottawa,2021),27-28.
[19] Jayasankar Krishnamurty,Ambedkar Educational Odyssy,1913-1927,www.Researchgate.net/publication/3391481161,26th,June,2022.
[20] Shekar Bodhakar,Ambedkar' Education Degree List Qualification,www.ambedkaritetoday.com,26th,June,2022.
[21] Dr.Bhimroa Ramji Ambedkar,(1891-1956) Life Sketch, www.lkouniv.ac.in,21st,June,2022.
[22] . Mumtaz Ali Khan,Mass Conversion of Meenakshipuram A Socialogical Inquary:Religious Conversion and Revival Movements in South Asia in Medieval and Modern times,47.
[23] Vincent Manoharan John Packia Nathan,Towards A Practical Dalit Theology:A Study On The Status and Relevance Of Dalit Theology Among Grass Roots Dalit Christians In Their Struggle Against Caste Oppression,Ph.D Thesis,(Birmingham,University of Birmingham,2012),11.
[24] India Christians Dalit Liberation Sunday Rights Dignity,www.Vaticannews/va/en/church/news/2020-11,26 -10 -2021.

ووقع حدث مثيل لإشهار "أمبيدكار" وأنصاره البوذية في إقليم "تاميض نادو" بجنوب الهند الذي شهد تحولا دينيا للمنبوذين الذين تختلف لغتهم وثقافتهم عن لغة وثقافة قوم "أمبيدكار" إليها على يد المصلح البوذي السريلانكي "أناكاريكادارمافالا" (1864-1933م) عام 1891م. وتعاون معه زعيم المنبوذين "أيودي داس" (1845-1914م) الذي يئس من مضايقات الطبقات الهندوسية العالية وأعلن أيضا أن المنبوذين ليسوا هندوسا ودفعهم إلى الجهر بأن المنبوذين الذين يتحدثون لغة "تاميض" شريحة عديمة الطبقات من المجتمع الدراويدي. وأسس جماعة "ساكيا" البوذية عام 1898م نصرة للمنبوذين الذين احتضنوا البوذية[25].

موقف تضاد

ولن ينسى التاريخ تغيير الدين الجماعي من قبل قرابة خمسمائة ألف من المنبوذين "داليت" بمدينة "ناكبور" الواقعة في إقليم "ماهاراشترا" الهندي يوم 14 من شهر أكتوبر، سنة 1956م وعلى رأسهم زعيمهم العظيم ومحرر الدستور الهندي والخبير القانوني الفريد الدكتور "أمبيدكار"، وقد هجروا القوم الهندوسي وانتقلوا إلى الديانة البوذية نقل تضاد وانشقاق، معلنين عن الفراق البائن، بعد أن انتاب مشاعرهم اليأس والإحباط بأنه لا نجاة لهم مع الهندوس وديانتهم. ولكن حدث تحولهم إلى البوذية يوم فرح عظيم وانتصار مبين على الديانة الطبقية البراهمانية[26].

واعتنق "أمبيدكار" وأربع مائة ألف منبوذ الديانة البوذية في اليوم الأول وأعقبهم في اليوم التالي 15 من أكتوبر، عام 1956م إعلان مائة ألف من إخوانهم المتأخرين عن التخلي عن الهندوسية وقبول البوذية على يد مرشدهم الروحاني "أمبيدكار"[27]. فلا شك أن أي قوة لم يسع أن تثني عنه عزمه على مواصلة تغيير المنبوذين المضطهدين إلى البوذية. وشارك في 16 من أكتوبر من سنة 1956م أيضا في حفل تحول ديني جماعي حاشد لأنصاره إلى البوذية بمدينة "شاندا"[28]. وعاش "أمبيدكار" خمسين يوما من اعتناقه البوذية حتى توفي 6 من دسمبر 1956م[29] وأدب خلالها على تحييق ما وعد به من أنه ولد منبوذا في الديانة الهندوسية لسوء حظه، ولم يكن لديه قدرة على تجنب هذه الولادة ولكنه أقدر فيما بعد على إنكار حياة تعج بأوضاع الرذالة والحقارة كما تعهد بأنه لن يموت هندوسيا[30]. وأطاعه نحو ثلاثة ملايين من المنبوذين وقطعوا الصلة مع الطبقات الهندوسية وأشهروا بوذيتهم المسماة بـ "نوايانا" قبل أن وافته المنية[31]. وبلغ عدد من اعتنق البوذية من المنبوذين خلال سنتين بعد دخوله الرسمي فيها عشرين مليونا وهم متفرقون في أقاليم شتى

[25] K.T.S.Saroa,The History of Mahabodhi Temple at Bodha Gaya,(Delhi,Springer ,2020),113.
Sangharakshita, Ambedkar and Buddhism,(Cambridge,Windhorse Publications,1986),94.[26]
Ibid,10.[27]
Dhananjay Keer,Dr.Ambedkar Life and Mission,(Bombay,Popular Prakashan,1954),504.[28]
Ibid,pp513-514[29]
Arpita Chauni,Ambedkar,Neo-Buddhism and Dalit [30]
Movement,104,www.researchgate.net/publication/340952466,26/07/2020.
Klaus K.Klostermeir, A Survey of Hinduism,327[31]

هندية مما يشير إلى خطورة قضية المنبوذين وشدة رغبتهم في الهروب من القبضة الطبقية[32].وقد تخطى الآن عدد بوذيي "نوايانا" - أتباع "أمبيدكار" - حدود ثمانية ملايين[33].

واستجاب هؤلاء الخمسمائة ألف لنداء قائدهم استجابة مخلصة لا تشوبها مصالح شخصية ورغبات ذاتية إلا رغبة التحرر من قيود عبودية يفرضها عليهم نظام الطبقات الهندوسية. وبدأوا السير نحو ميدان انعقاد التحول الديني في مدينة "ناكبور" قبل أسبوع من تاريخه وموعده المقررين ركوبا للحافلات العامة والقطارات والدراجات النارية والعربات التي تجرها الثيران، وكانت كذلك آلاف من الأسر لم تتح لها إمكانيات المواصلات وصلت إليه مشيا على الأقدام وقد حمل شبابها الأقوياء الأطفال على أكتافهم. ومما يزيد من الأهمية لهذا الحدث أن أناسا من المنبوذين باعوا حلي نسائهم لكي يسدوا نفقات السفر الطويل الموصل إلى وجهة وقوعه واشتراء الثياب الجديدة التي طلب منهم أن يرتدوها وقت دخول الديانة الجديدة[34].

مناقشة احتمالات التحول إلى أديان مختلفة

ترك "أمبيدكار" السيخية والإسلام والمسيحية؛ لأن الأخيرتان في رأيه ديانتان مغتربتان وافدتان إلى الهند؛ لا محليتان ذواتا الأروبة الهندية كما حبذ أن لا يصير المنبوذون صيرورة ثقافية تميزهم عن الثقافة الأهلية المنبثقة عن الهندوس، راغبا في دوامها جزء من هوية المجتمع المنبوذ المجدول حكوميا، ناهيك عن التغير الثقافي الجذري الذي يلزم معتنقي الإسلام والمسيحية أن يتعرضوا له وينصهروا في بوتقته، ويفرض ذلك عليهم توخي نمط حياة جديد يفصل بين القديم الهندوسي والحديث الإسلامي أو المسيحي ذي التأثير الثقافي القوي[35]. وأما السيخية فكان احتضانها بالنسبة له ولقومه مواتيا لأنها بقيت على الثقافة الهندوسية المحلية ولم تذب في قالب ثقافي أجنبي، ولا يضطرون إلى مغادرة الثقافة الهندوسية[36]، غير أنه ذهب إلى أن موقف القيادات السيخية من معارضة دخول المنبوذين في ديانتهم أفواجا أربكه إربا كما مفاجئا، ولم يطمئنه على إيواء شعبه المظلوم إلى السيخية والاحتماء بها[37]. وانتهى إلى هذه النتيجة بعد أن شعر بممارسات التمييز الطبقي بين صفوف أتباع السيخية وبأنهم ليسوا أحسن من الهندوس معاملة مع المنبوذين[38]. وخالف "أمبيدكار" الذي ألح على أن الخروج من الهندوسية سبيل وحيد للهروب من الإساءات الطبقية موقف "ماهاتما غاندي" وقد غضب على قراره وقد سعى أيضا إلى أن يديمه والمنبوذين الآخرين في الهندوسية ونظامها الطبقي، وبذل جهودا ضخمة من أجل تحقيق هدف نبيل هو إجازة دخول المنبوذين المعابد الهندوسية[39]. وتنبأ

[32] Lella Karunyakara,Modernisation of Buddhism:Contributions of Ambedkar and Dalailama – XIV,(New Delhi,Gyan Publishing House,2002),56.
[33] Mecarena Alamo Santos,The Path to A New Awakening:B.R.Ambedkar's transformation of Buddhist Philosophy,121.
Sangharakshita, Ambedkar and Buddhism,95-96.[34]
Dr.Ambedkar's Interpretations of Buddhism:Buddhist Concept of Samya in Ambedkar's Thought,162,[35] www.scribd.com/document/458372785,01-11-2020.
Dhananjay Keer,Dr.Ambedkar Life and Mission,279[36]
[37] Dr.Ambedkar in Search of Religion,p-42,www.research.vu.nl>files,02-11-202.
Trung Huynh, Why Did Ambedkar Choose Buddhism to Liberate His Depressed Classes?Was His Failure in Politics[38] Leading Him to Buddhism? , Chanju Mun and Ronald S. Green (Ed), Living in Peace: Insights from Buddhism,(Honolulu,Blue Pine Books,2013), 275.
Klaus K.Klostermeir, A Survey of Hinduism,327.[39]

"أمبيدكار" أمامه مرة بعد إبداء عزمه على اعتناق ديانة أخرى وعدم بقائه هندوسيا بأنه سيلتجئ إلى خيار أقل مساسا بالبلاد ويتجلى ذلك في توجهه إلى البوذية. فراعى به أن لايلحق تحوله الديني إضرارا بثقافة وتاريخ البلاد[40].

وكان حذرا من أن انخراط المنبوذين في سلك المسيحيين سيرسي دعائم الاستعمار البريطاني، والتحاقهم بصفوف المسلمين سيقوي نفوذهم وسيزايد عدد سكانهم مما يسهم في تشجيع مطالبتهم بالدولة المنفصلة (باكستان) عن الهند. ولم يرغب في التحول إلى الإسلام والمسيحية؛ لأنه يفقد قومه المنبوذ الهوية الهندية[41]. وكان مطلعا على مشاعر المسلمين بأنهم لم يسلموا من استبداد الهندوس بهم في حين لم يقود دستور البلاد على حماية حقوقهم، علما بأن حزب المؤتمر الهندي الذي كان أغلبية أعضائها هندوسا، سعى إلى إيقاع القطيعة بين جماعات المسلمين السياسية مما أمكن أن قاد إلى خوف "أمبيدكار" من تصاعد شدة غضب الهندوس على المنبوذين في حال تحولوا إلى الإسلام وقت حدة التوتر بينهم والمسلمين الذين كانوا عازمين على الانشقاق عن النهد الكبرى وتأسيس دولة مستقلة تسمى بباكستان. وهذا قبل تقسيم البلاد إلى الهند وباكستان فضلا عن ارتقابه لتزايد العلاقات المأزومة في المستقبل[42] بين المجتمعين المسلم والهندوسي بعد الانفصال. وذلك مما أفضى به إلى تبني الديانة البوذية التي ليست لهاصلة مفعمة بالضيق والاضطراب منذ عهد قريب وقد اعتقد الهندوس أن البوذية جزء من ديانتهم. ورسخ كذلك في ذهنه أن أي خطوة مقبلة منتهية إلى الخروج من الهندوسية ينبغي أن لا تقوي حركة انفصال باكستان وأن لا تزيد من سخط الهندوس على المنبوذين. وكان يرمي بتوجيه نقده المرير إلى البراهمانية ونسقها الاجتماعي الصادر عن التمييز الطبقي إلى إقامة نظام بديل يخلق فرصا موايية للمنبوذين لكي يتعايشوا مع البراهمانية بمعزل عن قبضتها الجائرة، وهو عالم علما يقينيا باستحالة القضاء على هيمنة الترتيب الطبقي على المجتمعات الهندية.[43]

اختيار البوذية ومدينة ناكبور مكانا لإعلان اعتناقها

وذكر "أمبيدكار" سببا تاريخيا آخر لتكون البوذية ديانة مفضلة للتحول إليها، وذلك أن أجداده من قبيلة "ناكا" ليسوا آريين؛ بل كانوا أعداءهم الألداء. ونشبت بين القبيلتين حروب حامية الوطيس، ونجا من إبادة الآريين شخص واحد؛ فانحدر من سلالته قوم "أمبيدكار". وانتظر شعب "ناكا" زعيما عظيما يخلصهم من الآريين وقيودهم الطبقية؛ فوجدوه في شخصية "بوذا"، واعتنقت قبيلة "ناكا" البوذية ذلك الحين التاريخي ونشروها رغم إصرار أصحاب الديانة البراهمانية الطبقية على إجبار المنبوذين على هجر البوذية وإلقائهم العقوبة على هؤلاء الضعفاء الأبرياء. و"ناكفور" كانت عاصمة لقوم "ناكا" في عهد "بوذا" مما قاد "أمبيدكار" إلى اختيارها موقعا خاصا لإقامة حفل الهجرة من الهندوسية إلى البوذية وإحياء إرث روحاني بوذي للمنبوذين[44].

[40] Dhananjay Keer,Dr.Ambedkar Life and Mission, 498

[41] Arpita Chauni,Ambedkar,Neo-Buddhism and Dalit Movement,104-105.

[42] John Bonney,Three Giants of South Asia:Gandhi,Ambedkar and Jinnah on Self-Determination,(Delhi,Media House, 2004),110-112.

[43] Anne M.Blackburn,Religion,Kinship and Buddhism:Ambedkar's Vision of a Moral Community,The Journal of The International Association of Buddhist Studies,(Northfield,Carleton College,1993),5.

[44] Sangharakshita, Ambedkar and Buddhism,94-95.

ومما أثار سخط "أمبيدكار" أيضاعقلية الاستبداد الطبقي للصحفيين الهندوس وإلحاحهم على ضرورة بقاء المنبوذين على وضعهم المنحط الحالي مقابل نيل امتيازات حكومية ومساعدات مالية مخصوصة لهم كمجتمع مجدول متخلف. وسألهم عن استعداد البراهمة (الطبقة الأولى) أن يصبحوا منبوذين لكي يتمتعوا بهذه المعونات الحكومية وأسكتهم[45].

حل وسط

استمسك "أمبيدكار" بموقف وسط لا يحرك حفيظة الطبقات الهندوسية ولاينقل المنبوذين إلى تجمع ثقافي معارض يعاديه الهندوس مخافة أن تزيد مشاكل جديدة على مشقاتهم المتواجدة. فراعى أن تكون ثقافة البوذيين الجدد ثقافة هندوسية وكأنها شرط أساسي لاعتناق ديانة أخرى[46] بمثابة الديانة السيخية التي لا تنحرف عن الثقافة الهندوسية ولو تأثر فكرها العقدي بالإسلام تأثرا نسبيا، وفكر "أمبيدكار" سابقا في قبولها بسبب العامل الثقافي الأهلي[47]. وذكر هنا حديثه مع "ماهاتما غاندي" (1869ـــ1948م) مؤسس دولة الهند الحديثة وقال له إنه سيتخذ قرارا مصيريا أقل تأثيرا على الهند بشأن معاناة المنبوذين وخلاصهم من أغلال الطبقات الهندوسية، وتمثل فيما بعد في اعتناقه البوذية المنضوية تحت الإرث الهندوسي دون الإخلال بتاريخ وثقافة وأعراف الهند[48]. ولم يتفق مع رؤية "ماهاتما غاندي" حول النظام الطبقي؛ إذ سعى إلى تصنيفهم في صفوف الطبقة الرابعة السافلة "شودرا"؛ ذلك حرصه على إدراجهم على قائمة حائزي الدرجة الطبقية بعد طردهم منها[49]. وليس من الغريب أن يتوقع عدم خروج "أمبيدكار" وأتباعه من الهندوسية وأن يرغب في عدم قطع صلتهم بالهندوس؛ لأن ميلهم إلى التحول الديني آثار حفيظة "غاندي" ولم يرتض عن قرار "أمبيدكار"[50]. ومما يؤيده أنه رغب في إبقاء الترتيب الطبقي مع إصلاح جديد يضمن مساواة حقوق جميع الأطياف. واستحال أن ينفذه أمام تعنت الهندوس؛ إذ اتهمه المنبوذون بعدم قدرته على القضاء على الفصل العنصري وأضراره على المنبوذين ناهيك عن عجزه وعدوه عن أي خطوة ثورية تنهي آلامهم. واتفق كذلك في تحقيق مصالحهم عن طريق آليات سياسية صاغها كي تكفل استمرار حقوق المسلمين[51].

يوم الفرح العارم

وحل تاريخ 14 من شهر أكتوبر عام 1956م، وكان يوم فرح عارم للمنبوذين ويوم "ديكشا" وبوذوة المنبوذين (تعميدهم للديانة البوذية). وحضر في المنصة "شاندرامالي" أحد كبار رجال الدين البوذي من مدينة "كوشينارا" الهندية التي توفي فيها "بوذا كاوتاما سيتارتا"[52]. ومن أبرز الشخصيات الذين عاينوا هذا الحفل

[45] Dhananjay Keer,Dr.Ambedkar Life and Mission,498.

[46] Edmund Weber,Ambedkar and the Hindu Culture,Journal of Religious Culture,No.18b (Frankfurt,Frankfurt University,1999),7-8.

[47] Ibid,4.

[48] Dhananjay Keer,Dr.Ambedkar Life and Mission,498.

[49] J.E.Sanjana,Caste and Outcaste,(Bombay,Thacker and Co,Ltd,1964), 20.

[50] Klaus K.Klostermaier, A Survey of Hinduism,327.

[51] Edmund Weber,Ambedkar and the Hindu Culture,Journal of Religious Culture,No.18b,4-5.

[52] Dhananjay Keer,Dr.Ambedkar Life and Mission,500.

"ديوافيرياواليي سينغا" أمين عام مجلس "ماهابوذي" السريلانكي مصحوبا مع وفد من رجال الدين السريلانكيين بدعوة خاصة من قبل "أمبيدكار" كي يشرف على وقائع التحول الديني الجماعي. وظهر على المنصة "أمبيدكار" وزوجته بملابس بيضاء ليكون أول من يعلن اعتناقه البوذية.[53]

وحملوا على طول سيرهم نحو موقع الحدث الجلل لافتات مكتوب فيها "ينادي بابا صاحب (الوالد السيد المحترم، ودُعي "أمبيدكار" بهذا اللقب) نداء بصوت عالٍ، واعتنقوا كافة البوذية وحرّكُوا الجنة وحركوا الأرض وتحولوا إلى البوذية[54] وامتلكوا ولادة جديدة" وملأت الشوارع هتافاتهم "النصر لبوذا والنصر لبابا صاحب". وآثار استغراب وحيرة الهندوس الذين كانوا يعاملون المنبوذين عبيدا وخدما فقط صفاء ملابسهم وحسن سلوكيتهم وانتظام تصرفاتهم يوم تغيير دياناتهم[55]. ووصل "أمبيدكار" قبل ثلاثة أيام من انعقاد واقعة التحول الديني إلى ميدانه لإشراف على مجريات الأمور والاستعدادات. وكان له احتكاك بالصحفيين المحسوبون على الطبقات الهندوسية العالية. ووجهوا إليه أسئلة عدائية بسطحها الرياء وقد عرفوا جوابها، عن عوامل انتقاله إلى ديانة جديدة بحيث هيجوا غضبه بتكرارها. فرد عليهم غاضبا: لماذا لم تطرحوها على أنفسكم وأجدادكم؟ وصرح لهم بوداع الهندوسية والاحتفاء بالبوذية على خلفية تعامل الطبقات الهندوسية غير الانساني معه وإخوانه المنبوذين طوال التاريخ. واستأنف قائلا بأن المجتمع المجدول سيبلغ بهذا النقل النوعي إلى البوذية كمال انسانيته ورجولته وشجاعته وسيتعلم عبر ودروس كيفية الاعتماد على نفسه[56].

الخلاص في رأي أمبيدكار

يبدو جليا أن استحالة نيل أبسط حقوق البشر المنبوذين وتحقيق درجة المساواة من القوم الهندوسي أسفرت عن موقف حاسم لـ "أمبيدكار" من الخلاص؛ إذ فكر في وضع حد فاصل بين عقليتي المجتمعين المنبوذ ذات الضعة والخسة والهندوسي ذات السطوة والكراهية وإعلان ابتعاد قومه الرسمي عن الطبقات دون المساس بوجوده ومصالح مستقبله. وكان قد بحث عن مفهوم خلاصي يصب عليه مبادئه العصيّة على العقائد الهندوسية والمتأثرة بالفكر الاشتراكي؛ فوجد ضالته في الديانة البوذية التي أيقن بأن الهندوس لا يعترضون على التحول إليها. وانبثق عن عقله النافذ التصحيحي تصور جديد يمزج تعاليم "بوذ" وأيديولوجيات "كارل ماركس" باسم بوذية "ناوايانا" الجديدة التي تمثل خلاصا نهائيا للمنبوذين.

نظرية مراحل رامبولويس لتغيير الدين

قد بين "لويس آر. رامبو" Lewis R.Rambo (من مواليد 1943) مراحل تدريجية سبعا للتحول الديني، الأولى منها – الظروف المحيطة، والثانية – الأزمة، والثالثة – البحث عن الحل أو الحق، والرابعة – المواجهة بين الطرفين الداعي والمدعو إليه، والخامسة – الاحتكاك الناجم عن طول العلاقات المتوترة بينهما، والسادسة – الالتزام بالدين الجديد، والسابعة – الصمود لعواقب محتملة للخروج من دين ودخول دين جديد[57].

[53] Sangharakshita, Ambedkar and Buddhism,100.
[54] Dhananjay Keer,Dr.Ambedkar Life and Mission,497.
[55] Sangharakshita, Ambedkar and Buddhism,96.
[56] Ibid,97.
[57] Lewis R. Rambo Understanding Religious Conversion,London,Yale University Press,1993).

فلا شك أن هذه الظروف الصعبة القاهرة التي لاينبعث عنها إلا اليأس وخيبة الأمل أرغمت المنبوذين الماشركين في واقعة "ناكبور" على بحث طويل عن حل نوعي يخرجهم من المأزق الطبقي المستعبد، بحيث لا رجعة بتبنيه واحتضانه إلى الطبقات الهندوسية عقب الهروب منها ومن قيودها. ويتضح هذا الموقف في خطوات "أمبيدكار" لكي يختار أحسن أو أحوط حل لايوقع المنبوذين إثر تحولهم إلى دين آخر في معضلات أخرى تنتج عنه. ويدل على تفكيره العميق في أنسب الحلول مناقشته حول إيجابيات وسلبيات الانتقال إلى السيخية والمسيحية والإسلام والبوذية. ويشير إلى تأييه في إيجاد تسوية وسط لاتزعج مناخ التعايش مع الأغلبية الهندوسية طول سيره في سبيل بلورة رأيه النهائي في البوذية وقد استمسك بموقف عدم الاستعجال في الجهر بأي دين يلتجئ إليه هو وأصحابه ولو بعد إظهار عزمهم على وداع الهندوسية. وذكر "أمبيدكار" في مؤتمر مدينة "واردة" عام 1936م أنه من الحقيقة "إعلاني عن التحول الديني ولكني لم أعتنق بعد أي ديانة ولم أعيّنها. فيجب على الجميع أن يبحوا بهذا الشأن ويفشوه بين العالمين حتى يحين وقت دخول دين جديد". وظهر سعيه هنا قرابة عشرين سنة متتالية حتى 1956م إلى إخراج كافة منبوذي الهند من الهندوسية وإدخالهم ديانة أخرى[58].

وأما المرحلتان الرابعة والخامسة المعنية بالمواجهة والاحتكاك التوتر بين الطرف الداعي والطرف المدعو إليه فلا تلائمان قضية تغيير الدين الذي زاوله المنبوذون في الحدث المذكور آنفا، كون المحتشدين في "ناكبور" يحتمون بمأوى آمن هو البوذية، وهي ديانة غربية أجنبية بالنسبة للهند وليس لها حضور ملحوظ حينئذ في أراضيها ولو نشأت فيها قبل 2500 سنة. وقبلوها مع فائق الاحترام والتقدير بهدف نشرها في جميع أرجاء هذه البلاد.

ولم ينسلخ القوم المنبوذ عن تعهداته بلزوم أداء واجبات الدين الجديد بعد احتضانه. ووعد "أمبيدكار" بأنه "لا قوة تقدر على منع مجتمعه من الذهاب إلى البوذية وكان مصمما على تنفيذ قراره مهما كانت التحديات المقبلة مهوّلة والعواقب الآتية جسيمة"[59]. وتمثل هذه الجمل ما أوضحه "رامبو لويس" في المرحلتين السادسة والسابعة.

نظرية شاد باومين

وضع "شاد باومين" Chad Bauman نظرية هامة تعنى بالتحول الديني المنتشر في أوساط المنبوذين والسكان الأصليين في الهند. واستعمل مصطلح Primordialism ليتحدث عن أساسيات أولية أو حاجات جذرية لا يدوم الآدمي بدونها انسانا، وهي الأمن والصحة والكرامة والعيش الشريف. ويحق أن يكون تغيير الدين من المنبوذين والقبائل الهندية بحثا عن هذه المستلزمات البشرية؛ لأنهم لايجدون توفرها لهم من الطبقات السامية الهندوسية. وناقش "شاد باومين" مصطلحا ثانيا أورده "ويشوانادان" Dissenting الذي يدل على نفي تعرض هؤلاء الماكين لتهميش الطبقات الراقية في

لويس آر. رامبو أستاذ علم النفس والدين في المعهد العالي اللاهوتي بمدينة "سانفرانسيسكو" الأمريكية. ويتناول كتابه الحديث عن كل مرحلة من مراحل تغيير الدين على حدة.

[58] Narake Hari, ed, Dr.Babasaheb Ambedkar, Writings and Speeches,Mumbai, Higher Education Department,2003. Vol:17,part:3,105.

[59] Mumtaz Ali Khan,Mass Conversion of Meenakshipuram A Socialogical Inquary:Religious Conversion and Revival Movements in South Asia in Medieval and Modern times,52.

جميع مجالات الحياة مما يحفزهم إلى اعتناق أي ديانة أخرى. وخالف "شاد باومين" هذا الرأي وعرف مصطلحا جديدا Assent الذي يعني التطلع إلى إيجاد هوية جديدة والطموح إلى تصور اجتماعي بديل عن طريق إشهار دين جديد يعتنقونه عن طيب النفس[60].

وليس من الصعوبة أن يدرك الدارسون المهتمون بقضايا وحقوق المنبوذين حقيقة إحساسهم الباطني والفطري بالبحث عن مخرج فوري ينقذهم من مضايقات الطبقات العالية حال عدم قدرتهم على الوقوف في وجهها. ويستحيل أن يشهد إنكارهم النظري للترتيب الطبقي حراكا شعبويا واقعيا ذا قوة مادية تمكّنهم من تغيير أوضاعهم البائسة. ويصح أن يسجل "شاد باومين" ارتقابهم لانتماء ديني آخر يرادف خلاصا جماعيا ويضمن مستقبلا أفضل وحياة كريمة.

دوافع تغيير الدين

تحتم بواعث تحويل الدين الناشئة عن الواقع البائس المزري الذي يجربه المنبوذون في حياتهم اليومية بين لحظة وأخرى ظهور مخلص ينقذهم من ورطة تاريخية مؤلمة توارثها أجدادهم.

سرد "أمبيدكار" نفسه وقائع تهميشه التي حملته على هجر الهندوسية وكراهيتها ويمكن تلخيصها في أحداث تالية. وأشار إلى انتظار طويل في محطة قطار ولم يجد هو وأشقاؤه استعداد أي سائق عربة لتقلهم إلى مكان عمل والده، إلا واحدا وافق على الذهاب بهم بشرط أن لا يسوق عربته بعد غروب الشمس. وعطشوا ولم توفر لهم الطبقات العالية الماء اعتقادا منها بأن لمس أفرادها بالمنبوذين ينجسها. وحينما عرفت هويتهم ضربهم أعضاؤها بغض النظر عن أنهم صغار. وكان أخو "أمبيدكار" الأكبر يقص شعره. ولم يرغب أي حلاق ولو من الطبقة السافلة في دخول المنبوذين محله، وهي أيضا خائفة من ملاقاة لوثة لائم من الطبقات الشريفة[61] كما أعرض عمال الملابس عن زيارة منازلهم وتنظيف ثيابهم الوسخة[62]. ودرس "أمبيدكار" في مدرسة للطبقات الرفيعة وكان طلابها ومدرسوها لا يدنون إلى أي طالب منبوذ مثله. وكان يجلس في زاوية على قطعة من خيش خشن لا يلمسه حتى العامل الذي ينظف قاعات الدرس مخافة أن الاحتكاك به يدنسه. وإذا عطش في المدرسة لم يجزه أن يخرج ويفتح حنفية الماء، ووجب عليه أن يرتقب خادما خاصا يفتحها للمنبوذين. وإن غاب فليس ل "أمبيدكار" إلا أن يعود إلى البيت ظامئا ذاك اليوم[63]. ودعاه مرة معلّم إلى المثول أمام السبورة لكي يحل مشكلة حسابية، وقد وضعت وراءها ثلب وجبات غداء لتلاميذ الطبقات العالية. فاندفعوا إلى السبورة قبل وصول "أمبيدكار" إليها ولمسها، ورموا علبات الطعام في ناحية بعيدة يقينا منهم بأن اقتراب المنبوذ من طعامهم يوسخه. وأفرط أحد المدرسين في موقفه وتثبط عزيمته وشناه عن التعليم ونصحه أن يهجره قائلا بأنه لا يفيد المنبوذ[64].

[60] Ian Douglas Richards,Poles Apart:The Debates on Religious Conversion in Post Independence India,13-15.

[61] Sangharakshita, Ambedkar and Buddhism,34-35

[62] Michael Stausberg,Leaving Hinduism:Deconversion as liberation,p-100,brill.com> downloadpdf › book› edcoll, 03-11-2020.

[63] Ibid,100.

[64] Sangharakshita, Ambedkar and Buddhism,36.

ورجع "أمبيدكار" إلى الهند بعد إكمال دراساته العليا في إنجلترا ووجد وظيفة حكومية عليا في مدينة "بارودا"، ولم يجد أي موظف يستقبله في محطة القطار كالعادة حينما يصل إليها أصحاب المناصب الإدارية العليا بسبب كونه منبوذا[65]. ولم يتعاون معه زملاءه التابعون له في مكتبه في أداء مهامه وأبدوا رفضهم لتعاطي منبوذ ولو كان رئيسا إداريا لقسمهم[66]. وفر وامنه كأنه محجوم، فترك هذا المنصب بعد تراجع سكان هذه المنطقة عن إيجار منزل له فيها. وعامله حاجبه منبوذا ولم يحترمه وهو مسؤول كبير المنصب الحكومي. وكان يرمي الملفات على طاولة "أمبيدكار" واقفا عن بعد، وقد كره لمسها ويدي سيده. وشحذت هذه الوقائع بأجمعها هم هذا القائد العظيم حتى توانيه الفرص سانحة وينتهزها فورا لخروجه وقومه من الديانة الهندوسية واعتناق البوذية[67].

وآمن هذا الزعيم بأن خلاصه وقومه يكمن في احتضان ديانة أخرى؛ ذلك متمثل في خصائص الديانة البوذية المختلفة عن ما تعتقد به الهندوسية من الإله والروح ونظام الطبقات. وهذه العناصر الثلاثة غير واردة في المعتقدات البوذية؛ إذ يغلب التمييز الطبقي على الأول والثاني ويضويان تحت تأويل خصوصية طبقية[68].

البوذية الجديدة ناوايانا

ولا يغيبن عن الدارسين أن هذه الصورة البوذية الحديثة تأسست على احتجاج "أمبيدكار" الشديد على اتجاهات الهندوسية الطبقية؛ إذ حبذ أن ديانة خلاص المنبوذين معدة تناسب تحقيق مطالبهم وتتخلص من عوامل آلمهم؛ إذ يتضح جليا أنه لم يحتضن ديانة أصيلة يعمل بتعاليمها أتباعها في مناطق أخرى.

وحلف أن يتبع أولا الضوابط الخلقية البوذية الخمسة: عدم القتل وعدم الكذب وعدم السرقة وعدم تناول المخدرات وعدم الاشتغال بالاتصال الجنسي غير الشرعي، من مجموع اثنين وعشرين يمينا أخرى أضافها "أمبيدكار" "نفسه إلى تعاليم البوذية الجديدة التي أشهرها هو وأصحابه وأقسموا على مزاولتها، ومن أهمها أن لا يؤمن بالإله الهندوسي والإلهة الهندوسية ولا يعبد تلك الآلهة كما يندد بعبادتها[69]، وأن لا يعتبر بالخصيص "براهما" و"ويشنو" و"ماهيش" (سيفا) عناصر التثليث البراهماني آلهة وسوف لا يعبدها، وأن لا يحسب "راما" و"كيريشنا" إلهين وسوف لا يعبدهما، وأن لا يعترف بالآلهة الهندوسية مثل "كاوري" و"كانافاتي" وغيرهما وسوف لا يعبدها، وأن لا يعتقد بأن الإله يتخذ ميلاد البشر يا أو تجسد ابأي صورة من صور الموجودات الدنيوية. وتعهد أن لا يعتبر "بوذا" تجسد الإله النهندوسي "ويشنو" ذي المظاهر البشرية والحيوانية وأن لا يتعاطى "شيرادّا" الشعائر الهندوسية التقليدية للميت. وقال أيضا إنه بنبذ ديانته القديمة الهندوسية التي تدعم عدم المساواة بين البشر وقع المستضعفين، ولد ولادة ثانية[70].

[65] Dhananjay Keer,Dr.Ambedkar Life and Mission,34.
[66] Michael Stausberg,Leaving Hinduism:Deconversion as liberation,101.
[67] Sangharakshita, Ambedkar and Buddhism,37.
[68] Dhananjay Keer,Dr.Ambedkar Life and Mission,492.
[69] Ibid,500.
[70] Lella Karunyakara,Modernisation of Buddhism:Contributions of Ambedkar and Dalailama – XIV,54-55.

وحلف أيضا أن لا يوظف رجال الدين البراهمة لإقامة محافل دينية[71]. وأقسم كذلك أن يعتقد بالمساواة بين البشر ويدأب على تحقيقها ويسير على درب "بوذا". فأعلن خطاما "أنني أهجر الهندوسية؛ لأنها مؤذية تضر الانسانية وتعرقل تقدمها وتنميتها كونها دياناة قائمة على عدم المساواة. وأتبنى البوذية دياناة لي"[72]. فتحقق هنا حلمه أن يموت غير هندوسي رغم مولده هندوسيا منسوبا إلى طائفة يتجنبهم المجتمع الهندوسي، ويزدريهم لضعتهم وفقرهم وهوانهم[73].

ومما ينوه به أن طال كفاح "أمبيدكار" السياسي أكثر من ثلاثين عاما من أجل إنجاح جهوده في سبيل نيل حقوقه البشرية، بيد أن إحساسه بالإحباط وخيبة الأمل في الطريقة الدستورية والقانونية السلمية دفعاه نحو الالتجاء إلى التحول الديني كآخر أسلحة ووسائل خلاص في يده بهدف الارتقاء بشعبه المنكوب إلى تحرير دنيوي يخفف من معاناته في هذا العالم. فوقع إعلان دخول البوذية قبل قرابة خمسين يوما من وفاته بعد يأس شديد خيم عليه وترقب طويل صبر عليه للحصول على حل شافي يحرره من أغلال الطبقات الهندوسية[74]، وبعد أن وُفق كوزير أول للقانون في الهند المستقل بفوز عظيم، يحقق للمنبوذين تلقي حقوقهم الانسانية وإلغاء التعامل على أساس المنبوذية وتصنيفه ضمن الجرائم حسب البند السابع عشر من دستور الهند الذي أقره البرلمان الهندي عام 1949م[75].

ورأى "أمبيدكار" أن البوذية إنجيل اجتماعي. فتركز بوذيته الجديدة على ما يفيد المجتمع المنبوذ من تعاليم "بوذا" الاجتماعية تركيزا أكثر من الجوانب البوذية العقدية لينأسب أوضاعه المأساوية وتطلعاته من الحرية والمؤاخاة والمساواة. ولم يكن أمامه للتحرر من أغلال الاسترقاق الطبقي الهندوسي وتحقيق طموحات المنبوذين للعدالة الاجتماعية إلا إبراز فكرة جامعة متكونة من "فيراجنا" الفهم المخالف للاتجاه الخارق للعادة أو النظريات الأسطورية و"كارونا" الحب والشفقة و"ساماتا" المساواة[76]. وهذه الأسس الثلاثة ضمانة وجدها "أمبيدكار" في البوذية ورفعها أسلحة فكرية للهجوم على القهر الطبقي. وانتقد بعون الأساس الأول فكر الإله الهندوسي الفائق للطبيعة، والذي خلق من رأسه الطبقة الأولى البراهمة رجال الدين، وصدر من أيديه الطبقة الثانية "كشتريا" الملوك والمحاربون، وانبثق من رجله الطبقة الثالثة "واسيا" المزارعون والتجار، وخرج من قدمه الطبقة الرابعة "شودرا" الخدم[77]. وأدان بالأساس الثاني فقدان المروءة والحرية الآدمية الذي يحث الطبقات العالية على كراهية المنبوذين الذين طردوا من الدرجة الطبقية[78]. وأفاده الأساس الثالث للانقضاض على التميز العنصري الطبقي الهندوسي الذي يتضمن التصرف السيئ[79] مع المجتمع المنبوذ والتعامل معهم تعاملا محتزيا أسوأ من الحيوانات[80].

---

[71] Dhananjay Keer,Dr.Ambedkar Life and Mission, 500

[72] Sangharakshita, Ambedkar and Buddhism,101.

[73] Dhananjay Keer,Dr.Ambedkar Life and Mission, 502.

[74] Trung Huynh, Why Did Ambedkar Choose Buddhism to Liberate His Depressed Classes?Was His Failure in Politics Leading Him to Buddhism?,265-266.

[75] Michael Stausberg,Leaving Hinduism:Deconversion as liberation,p-101

[76] Dhananjay Keer,Dr.Ambedkar Life and Mission, 490.

[77] Margret and James Stutley, A Dictionary of Hinduism,Its Mythology,Folklore and Development 1500 BC-1500AD,323.

[78] Sangharakshita, Ambedkar and Buddhism,23-38.

[79] يحتوي المبحث الثالث من هذا الكتاب على عنوان "جهنم الطبقات" الذي يبين ما يعانيه المنبوذون من ويلات قاسية على أيدي أعضاء الطبقات الراقية بيانا شافيا.

ومن المعلوم أن نظرة "أمبيدكار" لم تكن إلا ناقدة، ويتجلى مما حدث في منصة إعلان البوذية أن هذه الديانة أيضا لم تنج منها. ونطق واقتفيها أركان قبولها ودخولها وهي ثلاثة: الالتجاء إلى "بوذا" مؤسس البوذية والالتجاء إلى "دامّا" الحق البوذي والالتجاء إلى "سانكا" جماعة رجال ونساء الدين البوذي. ولم يمل "أمبيدكار" إلى مبايعة آخر الأقسام الثلاثة نظر الموقفه الناقد من أن هذه الجماعة غير فعالة، وترتب على تجمدها توقف شيوع البوذية في العالم. وتدخل المبعوث السريلانكي وأوضحه أن لا يكتمل تحوله الديني إلا بالتسليم بالشروط الثلاثة معا، مؤكدا على أن سائر البوذيين لا يعترفون به وأتباعه بوذيين حقيقيين إلا إذا أدوا القسم الثالث أيضا. فتلفظ "أمبيدكار" بالركن الثالث كرها[81]. وتسبب طابعه الناقد في تحديث وتجديد الفكر البوذي بذريعة دعمه بأيديولوجية "كارل ماركس" (1818-1883م) الاشتراكية.

بوذا وكارل ماركس

ورسم "أمبيدكار" متوازيات بين فكرتي "بوذا" و"كارل ماركس" وكأن ذلك تأويلا لتوجهات الأول في ضوء آراء الشخص الثاني؛ لأن "أمبيدكار" مولع بتصور مساواة النظام الاشتراكي الذي تقدم به "كارل ماركس" وقد تميزت فكرته بكونها خالية من الملكية الشخصية. ويصح موقفه؛ إذ يكون المنبوذون ملكية ذاتية للطبقات العالية الهندوسية مما فتح لها الباب على مصراعيه في التصرف الاستبدادي بحقوقهم ومعاملتهم معاملة غاشمة أسوأ من البهائم. واقتنع "أمبيدكار" بأن الفكر الاشتراكي يقدر على خلاص المنبوذين من المعاناة الصادرة من العقيدة الطبقية الهندوسية[82].

ويجمل بهذا المقام أن توصف بوذية "ناوايانا" وصفا أدق بأنها حركة اجتماعية منها لكونها جماعة دينية. وكانت تهدف إلى إنهاء صراع طويل الأمد نجم عن المنبوذية والتمييز العنصري واضطهادات الطبقات العالية الهندوسية ضد المنبوذين[83].

ورأى "أمبيدكار" أن تصور استغلال الفقراء الذي تحدث عنه "كارل ماركس" متوفر في رأي "بوذا" حول المعاناة "دوكّا". وذكر أنهما وقفا من أن اقتناء الأملاك والعقارات الخاصة منح الأغنياء قوة قهر مطلق فيما قاد الفقراء إلى التعرض لاستغلال الطبقة الموسرة. وأشار إلى أنهما اتجها إلى ضرورة القضاء على الممتلكات الخاصة كونه عاملا أساسيا يعود على المجتمع بالنفع ويتخلص من الألم والأذى الذان يطاردانه[84].

ومما يثير اهتمام باحثي الأديان أن عديدا من أيديولوجيات حديثة أثرت على المصلحين الدينيين المحدثين تأثيرا هائلا نجم عنه في تطبيقها على مناهج توجهاتهم الإصلاحية. وكون كل منهم مدرسة فلسفية خاصة، لها نفوذ قوي طويل الزمن على الأتباع. ومازالت ـ ولا تزال ـ أفكار "أمبيدكار" مسلط ضوء على كافة المنبوذين. فلا شك أنه كان من مناصري الاشتراكية الماركسية ولو تلقى تعليمه في جامعات الغرب مما يقود إلى أن يُستنبط من ذلك استنباطا طبيعيا معارضة "أمبيدكار" للمدرسة الرأسمالية في خمسينيات القرن الماضي. فوازن بين عدويه: الأول البراهمانية الهندوسية

---

[79] Klaus K.Klostermaier, A Survey of Hinduism,485.
[80] Ibid,326.
[81] Sangharakshita, Ambedkar and Buddhism,100.
[82] Vidhu Verma,Reinterpreting Buddhism: Ambedkar on the Politics of Social Action,60, www.researchgate.net/publication/322530054,06-11-2020.
[83] Arpita Chauni,Ambedkar,Neo-Buddhism and Dalit Movement,107
[84] Dr.Ambedkar's Interpretations of Buddhism:Buddhist Concept of Samya in Ambedkar's Thought,174-175.

وهي إمبريالية طبقية تقمع حقوق المنبوذين والشاني الرأسمالية وهي إمبريالية اقتصادية تستبد بحقوق العمال85. وكان مفتاح تحرير قومه نظرية المساواة المضمنة في الفكر الاشتراكي، وكانت هذه المهمة تتطلب أن يصوغ لاهوتا تحريريا يناسب الأجواء الهندية كون التصور الاشتراكي وافدا أجنبيا. وبحث طويلا في كيان ديني يتكيف مع تأويله الاشتراكي وألفى ضالته في تعاليم "بوذا" لكي تتصهر في القالب الاشتراكي ويصبح هذا المزيج بين الاشتراكية وإرشادات "بوذا" ديانة جديدة تُعرف بـ Neo-Buddhism "بوذية ناوايانا"86.

ويمكن أن ينعت التحول الديني الجماعي ل "أمبيدكار" ومناصريه بأنه لاهوت تحرير هو خالقه أو خلاص حديث العهد هو صانعه، يستحيل بلوغه حال كون العيش تحت النظام الطبقي الهندوسي عذابا. وشدد على أن ضرورة تغيير المنبوذين لدين آخر نظيرة للزوم استقلال الهند من الاستعمار، غايتهما واحدة هي التحرر من أغلال الاستبداد87.

ويجب على الدارسين أن لاينسوا النقد بعض العلماء لآراء "أمبيدكار" قائلين بأنه أول تعاليم "بوذا" تأويلا مخازيا يخدم مقاصده88، ويمكن أن يطلق عليه باسم الفلسفة الاجتماعية89. ولا يهمه في إنشائه إلا إنجاز المساواة لزملائه المنبوذين وبناء مأوى ديني آمن لهم يفصلهم عن قبضة طبقات الهندوس90. وهذا موقف عقدي له نتيجة أن سحره الرأي الحاسم ل "كارل ماركس" بأن الاستئثار بالأملاك يتسبب في تزويد طبقة بالسلطة والقوة وزيادة معاناة طبقة أخرى مما يفيد أن الطبقات العالية الهندوسية تعتبر أفراد الطبقات الدانية ملكا خاصا لها وتستعبدهم. ويعترف "أمبيدكار" بالدين القائم على المساواة والحرية والأخوة والفكر العقلاني ومصلحة الانسان فوجد هذه العناصر الخمسة في البوذية وفرها طائفة حديثة تأسس عليها تفسيرا ذاتيا91. ويصح الحديث عن رغبته في نقلة نوعية للبوذية هي "نيبانا" خلاص دنيوي بالنسبة له92، تحولها من استمساك وثيق بالعقائد إلى ظهور تيار اجتماعي قوي يدفع بها نحو تخويل المنبوذين والطبقات السافلة حقوقا وسلطات وصلاحيات، هي مقعدمتها أمام الطبقات العالية93.

الخاتمة

إن فكر "أمبيدكار" مشروع حضاري انساني فريد يمكّن من إنقاذ شريحة كبرى من البشر، ويتصدر التحول الديني آليته التي طالت السياسة والدستور والكفاح السلمي، وحال فشلها جميعا هرول هو وأنصاره المنبوذون إلى تغيير الديانة. ومازال الجانب العملي وبالخصوص التطبيق الأخلاقي الذي يراعي حقوق

[85] Ishita Aditya Ray and Sarbapriya Ray, Dr. B. R. Ambedkar and his thought on socialism in India:A Critical Evaluattion, International Journal of Human Sciences [Online]. (9)2,240, www.j-humansciences.com › IJHS › article › viewFile,06-11-2020.

[86] Ibid,247-248.

[87] Lella Karunyakara,Modernisation of Buddhism:Contributions of Ambedkar and Dalailama – XIV,54.

[88] Trung Huynh, Why Did Ambedkar Choose Buddhism to Liberate His Depressed Classes?Was His Failure in Politics leading to Buddhism?,279.

[89] Mecarena Alamo Santos,The Path to A New Awakening:B.R.Ambedkar's transformation of Buddhist Philosophy,121.

[90] Lella Karunyakara,Modernisation of Buddhism:Contributions of Ambedkar and Dalailama – XIV,53

[91] R.K.Kshrisagar,Karl Marx and Babasaheb Ambedkar A Comparative Study,(Delhi,Kalpaz Pulication,2015),108.

[92] Mecarena Alamo Santos,The Path to A New Awakening:B.R.Ambedkar's transformation of Buddhist Philosophy,28.

[93] Ibid,2.

المتحولين الجدد إلى الدين الجديد عنصرا أساسيا لهجر الدين القديم وظفه "أمبيدكار" ولايظل المجتمع المنبوذ يوظفه لاختيار المسار الآخر. وليس هذا إلا تحذيرا عظيما يجب على المسلمين أن يتنبهوا له؛ لأن انحطاط أخلاق المسلمين تجاه الآخرين وإخفاقهم في الالتزام بها يتسببان في إحتمال هروب المظلومين من الحضانة الإسلامية وهم غير مستعدين للتسليم بالانتقال من جور طبقي استرقاقي مخزي إلى نوع آخر من الحرمان والذل والهوان. وقد اشتهر الحديث الشابت عن نجاح "أمبيدكار" في تحقيق خلاص دنيوي لمجتمعه المنبوذ من خلال تسييرهم من دياية طبقية إلى دياية معايرة لها وأصلحها إصلاحا اجتماعيا يلبي احتياجات قومه إلى المساواة وينقذهم من التمييز الطبقي الغاشم.